الصّبغةُ الاستعماريّةُ والعلاقاتُ المابعد استعماريّة:
« لم يكُنِ الاستعمار سوى معترِضةٍ (ضخمةٍ) »
حوار مع أشيل مْبَامْبِي

تعريب: جمال عمّار[1]

الملخّص

في هذا الحوار العميق، يناقش أشيل مْبامْبِي طبيعة العلاقات بين المستعمرات الإفريقية السابقة والقوى الاستعمارية القديمة، خاصّة فرنسا وبريطانيا، مبرّزًا كيف أنّ الاستقلال السياسي لم ينهِ بالضرورة منطق السيطرة الاستعمارية، بل أعاد تشكيله بأشكالٍ جديدة. يشدد مبامبي على أنّ إفريقيا ليست مجرّد ضحية للاستعمار، بل هي كيانٌ ذو تاريخٍ طويلٍ سابقٍ للاستعمار، مليءٍ بالحيوية والتنوّع والتداخلات. ويرى أنّ التصوّرات الجوهريّة لإفريقيا تُختزلها في ماضٍ استعماريّ، ويؤكد على ضرورة الاعتراف بإفريقيا بوصفها كيانًا متحوّلًا، ومشروعًا في طور التشكّل. كما ينتقد النزعة الأوروبية في احتكار المفاهيم الكونية، ويدعو إلى انخراطٍ نقديّ في تراث الإنسانية بأكملها، من دون تبعيةٍ ولا قطيعة. ويرى أنّ الاستعمار لم يُلغِ طاقات المجتمعات الإفريقية، بل حوّل وجهتها، وأنّ مشروع (التحرّر الإبستيمولوجي) يمرّ عبر إعادة توظيف أدوات الفكر الكوني بطريقةٍ إبداعية. ينتقد مبامبي أيضًا إغفال المساهمة الإفريقية في بناء الحداثة الغربية، خاصّة من خلال العبودية، ويرى أنّ (العِرق) استُعمل كمفهومٍ لتبرير التراتبيات الاجتماعية والسياسية. أخيرًا، يدعو إلى تجاوز النزعة الإنسانية المتعالية لبناء (مشتركٍ كونيّ) يشمل كلّ الكائنات الحيّة، وليس البشر وحدهم.

الكلمات المفتاحيّة: ما بعد الاستعمار، التحرر الإبستيمولوجي، الحداثة والعِرق، الكونيّة النقديّة، إفريقيا المتحوّلة.

---

١. الحوار: باللّغة الفرنسيّة. أجرتِ الحوارَ عزّ الدّين حَجِّي.

عنوان المقال (الحوار) باللّسان الفرنسي:

Colonialité et rapports postcoloniaux «La colonisation n'aura été qu'une (énorme) parenthèse» Entretien avec Achille MBEMBE.

*) المصدر: مجلة «المجلة الجديدة» (La Revue nouvelle). العدد الأول/٢٠١٨.. Entretien avec Achille MBEMBE

مقدّمة

أشيل مْبَامْبِي[1] مؤرِّخٌ، وفيلسوفٌ، وعالمٌ سياسيٌّ، وأستاذٌ جامعيٌّ كاميرونيٌّ. يُعدّ مبامبي محلِّلاً للسلطة الاستعماريّة وناقدًا للرأسماليّة النيوليبراليّة.

مسيرته: وُلد أشيلْ مْبامْبِي بالقرب من أوتيلي[2] في الكاميرون الفرنسية سنة ١٩٥٧. درس في جامعة السوربون في باريس، حيث حصل على الدكتوراه في التاريخ في العام ١٩٨٩، ثم عمل في العديد من الجامعات. هو حاليًا عضوٌ في فريق معهد[3] للبحوث الاجتماعيّة والاقتصاديّة[4] بجامعة (ويتواترسراند) في جوهانسبرغ بجنوب إفريقيا. تتنوع اهتماماته بين التاريخ الإفريقي، والسياسة الإفريقيّة، والعلوم الاجتماعيّة. له كتبٌ ومقالاتٌ، وحوارتٌ معه، باللّسانين الفرنسي والإنكليزيّ.

مؤلّفاتُه: نقد العقل الزنجي، ما بعد الاستعمار: إفريقيا والبحث عن الهويّة المسلوبة، الوحشيّة، وكتب أخرى له وحوله، ومقالاتٌ له وحوله، وحوارات معه.

جرى هذا الحوار مع أشيلْ مْبامْبِي، في أجواء حفل تتويجه بالدّكتوراه الفخريّة التي منحته إيّاها جامعةُ لوفان الكاثوليكيّةُ في شهر أكتوبر/ تشرين الأول سنة ٢٠١٧. لقد كانت فرصةً لأنْ نراجع معه قائمةً من المسائل التي بحثها في أعماله الفكريّة.

كيف تنبني العلاقات بين القوى الاستعماريّة القديمة، والممتلكات (المستعمرات)[5] القديمة، خصوصًا في إفريقيا؟

ما وزنُ الحِقبة الاستعماريّة على الوضع الحاضر لكلٍّ من تلك المستعمرات القديمة؟

ما التّحدّيات، الإبستيمولوجيّة منها خصوصًا، التي تواجه النّضالاتِ المابعد استعماريّة وضدّ العنصريّة؟

إنّ الأفقَ السّياسيَّ الذي يرسمه مْبامْبِي ويُخطّط له لا يهدف إلى إرساء العدالة بين الكائنات البشريّة فحسبُ، بل يمتدّ ليشمل مجموع عوالم الكائنات الحيّة.

---

1. Achille MBEMBE
2. Otélé
3. Wits
4. WISER
5. possessions

الحوار

السؤال: تقدّر بعضُ الأعمال النقديّة المابعد استعماريّة أنّ سيروراتِ التّحرُّر من الاستعمار لم تُؤدِّ إلى مراجعةٍ شاملةٍ للعلاقات بين الأمم المستعمَرة والأمم المستعمِرة، قديمًا. على العكس من ذلك تمامًا، من العسير أنْ نُؤكّدَ أنّ تلك السّيروراتِ تندرج ضمن استمراريّةٍ مثاليّةٍ، بقدر ما أنّ أعمال العنف، بأشكالها المختلفة، التي كانت تميّزها، تمثّل ــ على الرّغم من كلّ شيءٍ ــ علامةً على وجود قطيعةٍ ما. ما هو تحليلُك حول نقاط القطيعة والاستمراريّة بين الحِقبتَيْن الاستعاريّة والمابعد استعماريّة في العلاقات التي تحافظ عليها الأممُ المستعمَرةُ القديمةُ، في إفريقيا خصوصًا، مع باقي دول العالم؟ وهل تُوجد اختلافاتٌ في ما يتعلّق بالعلاقة مع القوّة الاستعماريّة القديمة المعنيّة؟

* **أشيل مْبَامْبِي:** تُوجد تغيُّراتٌ تاريخيّةٌ. مثلاً لا تُحافظ الموزمبيقُ أو أنغُولا على علاقاتٍ مع البرتغال [مستعمِرهما السّابق] بالقدر الذي تفعله الكوت ديفوار أو السّنغال مع فرنسا [مستعمِرهما السّابق]. أريد القول إنّ الأشكالَ التي اتّخذتها سيرورةُ التّحرُّر من الاستعمار[1] كان لها تأثيرٌ على طبيعة العلاقات التي بقيت بعد الاحتلال بما هو احتلالٌ. بعضُ الدُّول قد انتزعت استقلالَها بعد حركاتٍ ثوريّة، بما فيها الحركاتُ المسلَّحةُ. وبعضُ الدُّول الأخرى كانت قد تفاوضت مع المستعمِر حول نقلٍ [سلميٍّ] للسّلطة انطلاقًا من موقف ضعفٍ واضحٍ. بعضُهم أتقن، أكثرَ من آخَرين، اللّعب على علاقة الاستقلاليّة النّسبيّة التي كانوا يمتلكونها من أجل تحديد مصيرهم.

لكن في الغالب، طالما ظلّت إفريقيا مقسَّمةً إلى دُول متعدّدةٍ صغيرةٍ، منطويةٍ على أنفسها، ومحشورةٍ في زاوية لعبة العلاقات الفرديّة «واحد لواحد»[2] العقيمة، مع القوى الاستعماريّة القديمة، لن يكون لها وزنٌ على رقعة العلاقات العالميّة.

تُوجد إذًا تغيُّراتٌ عظيمةٌ، بما يشمل ما يتعلّق بالتّوازن بين الدّولة والمجتمع، أو ما يتعلّق بالعلاقات بين الصّفْوات (النُّخب)[3] والقوى الاجتماعيّة التي يُتيحها التّواطُؤُ بين الرّأسمال الماليّ

1. processus de décolonisation
2. tête-à-tête
3. élites

العالميّ والاقتصادات الاستخراجيّة [المنجميّة والنّفطيّة] السّائدة لدينا. ينبغي أنْ نأخذ هذه الأمورَ بعين الاعتبار إذا ما أردنا أنْ نتبيّن كيفيّة السّيطرة التي لا تزال قائمةً على الرّغم من الاستقلالات الشّكليّة. وإضافةً إلى ذلك، من المناسب أن ننتبه إلى هذا التّنوُّع في المسارات التّاريخيّة إذا ما كان المشروعُ حقًّا، هو أنْ نجعلَ من إفريقيا ما أُسمّيه «قوّتَها الخاصّة»[1].

السؤال: حسب رأيك، ما هي العواملُ التي يمكنها أن تُفسِّرَ، مثلًا، حقيقةَ كون فرنسا تُعامل مستعمَراتِها القديمةَ بشكلٍ يختلف عن معاملة بريطانيا العظمى لمستعمَراتها القديمة؟ وأيْضًا، هل هي عواملُ ثقافيّةٌ ناتجةٌ عن تاريخها، سواءً تاريخها الاستعماريّ أم حتّى تاريخها السابق للحقبة الاستعماريّة، أو هي بالأحرى عواملُ ترتبط ببنيتها الاقتصاديّة؟

*** أشيل مْبَامْبِي: أعتقد أنّه توجد عواملُ كثيرةٌ:**

١. عاملُ العجز الدّاخليّ للمجتمعات المستعمَرة على أن تتّحد وعلى أنْ تُعارِضَ القدرةَ الاستعماريّةَ بقدرةٍ مضادّةٍ ذات قوّةٍ معادِلة لها نسبيًّا. لقد كانت المجتمعاتُ، التي استعمرتها فرنسا سابقًا، في إفريقيا ماتحت الصّحراء، في مجموعها، عاجزةً عن أنْ تُعارض فرنسا بقوّةِ مقاوَمةٍ قويّةٍ كفايةً لكي تغيّرَ، بشكلٍ دائمٍ، طبيعةَ علاقات القدرة[2] بعد خروج المستعمِر.

٢. لكن توجد، أيضًا، عواملُ عسكريّةٌ صِرْف، كانت قد مكّنتْ فرنسا من أنْ تُنصِّب [في جميع مستعمَراتها الإفريقيّة السابقة تقريبا]، بعد الاستقلالات، شكلًا من الدّولة المابعد استعماريّة التي هي في جوهرها (دولة تحت الوصاية). لقد مكّنت البنيةُ الاستخراجيّةُ للاقتصادات الإفريقيّة، واستحواذُ القوى الخاصّة المحليّة والعالميّة على الدّولة وعلى الديوانيّة (البيروقراطيّة)، مكنت من تكوين كتلٍ هيمنيّةٍ تتناقض مصالحها مع المشروع الإفريقي للتحرُّر التّام.

السؤال: تتضمّن الطريقة التي تتناول بها العلاقات المابعد استعماريّة تنوُّعًا كبيرًا في الحالات. على الرّغم من أنّه تُوجد لديك نزعةٌ، عند الكلام عن إفريقيا، في أنْ تتكلّم عنها بوصفها كتلةً مُفردةً ومُوحّدةً. ما الذي يمكن أن يمثّل التّفرُّدَ والوحدةَ لهذا الكيان الذي يمكن أنْ نفكّر، مسبقًا، أنّه لا يعدو أنْ يكون كتلةً جغرافيّةً صِرْفًا؟

1. sa puissance propre

2. rapports de pouvoir

هل يمكن أنْ تمثّل تجربتا الاستعمار والرِّقّ، وحدَهما، خصوصيّةً لوجهة النظر هذه؟ ألا تُوجد، أيضًا، مخاطرةٌ بتسرّب النزعة الجوهريّة[١]، بل بوجود شكلٍ من التّمجيد الوطنيّ على مستوى قارّةٍ؟

* **أشيل مْبَامْبِي:** هذا الخطرُ حقيقيّ. لكنّني أرى أنّ الأمرَ هنا يتعلّق، جوهريًّا، بسلسلة من المجتمعات ذات التّاريخ الطويل جدًّا. لا يمكن اختزالُ تاريخها في الاستعمار والرِّقّ. لكي نفهم الإواليّات (الدّيناميّات)[٢] المعاصرةَ، يجب أنْ نرجع إلى التّاريخ المديد للمجتمعات الإفريقيّة، وبشكلٍ خاصٍّ إلى الإواليّات الماقبل استعماريّة التي حيويّتُها أبعدُ من أنْ تكون قد قُضِي عليها بفعل الحدث الاستعماريّ في حدّ ذاته. إذا ما تعاملنا بجدّيّة مع تلك الإواليّات المُتكوّنة من تدفّقات[٣] متنوّعة، ومن تنافر[٤] بنيويٍّ، ومن تعدُّد في المراكز[٥]، ومن حدودٍ متحرّكة، ومن حركةٍ مستمرّةٍ للأشخاص والبضائع بين الحدود، يُمكننا، إذًا، أن نتصوّر وجودَ وحدةٍ تتجاوز مجرّد الحادثة[٦] الجغرافيّة.

أنا أرى أنّ إفريقيا هي، في آنٍ، حقيقةٌ تاريخيّةٌ مكوّنةٌ من سلاسلَ[٧]، ومن حلقات[٨]، أو من عُقَد[٩]، ومن تدفُّقات تتداخل في ما بينها، وتنتقل من مكانٍ إلى آخَرَ... إنّ إفريقيا، في جوهرها، كيانٌ متنقِّلٌ/ متحوِّلٌ[١٠]، في حركة دائمة، أيْ إنّها مرنةٌ (بلاستيكيّةٌ)[١١]، وهي بالتّالي قادرةٌ على امتصاص أشكالٍ عديدة، وأن تتشكّل، هي نفسُها، في أشكالٍ عديدة. وهذه القدرةُ/ الطّاقة التّحوُّليّةُ وشبهُ المُتحرِّكة لم تكن موضوعًا لتنظيرات ملائمة. وأخيرًا، إنّ إفريقيا مشروعٌ، أيْضًا: الأملُ في أنْ نصبح يومًا ما قدرتَنا الذاتيّةَ، وقوّتنا الذاتيّةَ، ومركَزَنا الخاصَّ، المفتوحَ على نفسه وعلى العالَم. أنا أعتقد أنّ ما يُسمّى إفريقيا يقع، بالضّبط، في الحدّ المشترك الفاصل بين تلك الحقيقة وهذا المشروع.

---

1. essentialisme
2. dynamiques
3. flux
4. hétérogénéité
5. polycentricité
6. accident
7. chaines
8. chainons
9. nœuds
10. entité circulante
11. plastique

السؤال: أنت ترفض إذًا بطريقةٍ ما الخطابات التي تُحمّل الأحداثَ المعاصرة التي تشهدها إفريقيا تبعاتِ الثّقل الضّخم للحِقبة الاستعماريّة، سواء من وجهة نظرٍ إيجابيةٍ أم سلبيّةٍ؟

* **أشيل مْبَامْبِي:** إفريقيا لا تُختَصر لا في الاستعمار ولا في الرِّقّ. أنا أعتقد أنّنا نرتكب خطأً جسيمًا بحقّ إفريقيا كلّما اختزلنا تاريخَها المديدَ في ما ليس، في جوهره، إلّا علامةَ ترقيمٍ ضخمةً[١]. إفريقيا لها تاريخُها قبل الاستعمار وبعده. ولا يتمثّل فعلُ الاستعمار، البتّةَ، في إلغاء الطّاقات الجوهريّة للمجتمعات المستعمَرة، بل بالأحرى في تحويلها عن وجهتها. ما فعله المستعمِرُ هو تحويلُ طاقات الأفارقة عن وجهة التّأثير في مصيرهم الخاصّ ومصير العالَم [نحو خدمة مصالحه الخاصّة]. لكنْ لم يحدث إلغاءٌ لتلك الطّاقات خلال الحِقبة الاستعماريّة.

يجدرُ التّذكيرُ بهذه المعطيات في الجدالات المعاصرة إذا ما أردنا أنْ نكون منصِفين إزاء مصطلح «الاستعماريّة» (الصّبغة الاستعماريّة / المصفوفة الاستعماريّة)[٢]. تستلزم «الاستعماريّةُ»، في جوهرها، حسب تعريفها، أكثرَ من فاعلٍ[٣]، واحتكاكاتٍ[٤]، ومُخفِقين[٥]، ومنطقًا جدليًّا (ديالكتيكًا)[٦]. إضافةً إلى هذا، يوجدُ جزءٌ من «الاستعماريّة» منشأُه التّواطُؤُ والعمالةُ، لا التّصادمُ والمقاومةُ فحسبُ. يجب الكفُّ عن حصر قراءة تاريخ الخاضعين للهيمنة بمنظار الفضيلة. هذا القولُ لا يعني، البتّة، إنكارَ العنفِ الـمُؤسِّسِ للعلاقة الاستعماريّة، والثّمنَ الباهظَ الذي توجّبَ على بعض البلدان دفعَه لكي تنشأَ تلك العلاقةُ [العنفيّة] وأنْ تتكرّرَ وتستمرَّ. أنا أعتقد أنّ هذه التوضيحات جديرةٌ بالذّكر والاهتمام إذا ما أُريدَ فتحُ دروبٍ نحو المستقبل من أجل سياسةٍ للعالَم تمنحُ مكانةً أساسيّةً لفكرة الـ«معًا»[٧].

1. énorme ponctuation
2. colonialité
3. acteur
4. frictions
5. ratés
6. dialectique
7. en-commun

السؤال: صحيحٌ أنّ الطّريقة التي عولجت بها مسألةُ تاريخ إفريقيا، في أوروبا وداخل القوى الاستعماريّة القديمة، هي، من وجهة النّظر هذه، طريقةٌ مُبِينةٌ[1]. لكنْ، كيف يُمكننا أنْ نُفسّرَ هذه النّزعةَ الجموديّةَ[2]، وهذه الصّعوبة في التّفكير في إفريقيا التي نجدها أيضًا عند المثقفين الأفارقة؟ هل يمثّل استيراد المفكّر لأدوات مفهوميّة هي، في أساس نشأتها، أوروبّيّةٌ أو غربيّةٌ، عائقًا أمام الانعتاق [الفكريّ]؟ هل أصبح من الضّروريّ تأسيسُ علم معرفةٍ (إبستيمولوجيا) خاصٍّ من أجل تحقيق الانعتاق؟

* **أشيل مْبَامْبِي:** في أعمالي، أنا أطرح المسألةَ بطريقةٍ مختلفة. أنا أنطلق من فكرةٍ تقول إنّ أوروبا، الشّمالَ، الغربَ، سمِّ كما شئتَ... قد طوّر، ربّما أكثرَ من أيٍّ من الكيانات التّاريخيّة الأخرى، المفاهيمَ، والأدواتِ المعرفيّةَ الضّروريّةَ للقيام بنقد ذاته. نجد، في ما يُمكن أنْ نُسمّيَه بشكل عامٍّ محفوظات الوثائق [الأرشيف] الخاصّة بأوروبا مجموعةً من الأفكار، ومن المقولات، ومن المخطّطات الفكريّة الضّروريّة للقيام بنقد أوربا [الغرب عمومًا] لذاتها. وهذا الأمرُ، في جوهره، ربّما يمثّل أحدَ الأشياء التي تُميّزها/ـه عن الكيانات الثّقافيّة الإنسانيّة الأخرى. إذًا، لا شيْءَ يمنع، قبليًّا، من الاقتباس من تلك المفاهيم، ومن تلك المقولات، ومن القوالب الفكريّة تلك، ومن استعمالها ضدّ أوروبا نفسِها [الغرب]، بما إنّها هي نفسها تستعملها بالفعل لنقد ذاتِها.

مع العلم أنّ بعضَ غير الأوروبّيّين قد أسهم في نحت تلك الحقول من الأدوات النّقديّة. لِمَ، إذًا، نحرم أنفسَنا من الاستفادة ممّا هو، من نواحٍ عديدة، اختراعٌ بشريٌّ مشترَكٌ؟ لنا إذًا، حقٌّ وراثة، ونصيبٌ في هذا الكنز الذي لا تعود ملكيّتُه إلى أوروبا [الغرب] فحسبُ. ليس بإمكاننا، إذًا، التّخلّص من ذلك المخزون المفاهيمي النّقدي عند الانشغال بأداء وظيفتنا النقديّة التي هي التّحرّرُ العلم معرفيٌّ من الاستعمار[3].

صحيحٌ أنّ الدّراسةَ التاريخيّةَ النقديّةَ المعمّقةَ للميراث الأوروبيّ تُمكنّنا من أن نتبيّن/نفهم، بدقّة، هذا النّوع من المطالبة التي تتعلق أيضًا بفعل إصلاحٍ واستردادٍ. والميزةُ التي نملكها لا تنحصر في وراثتنا للميراث الأوروبيّ، بل تتعدّاه إلى مواريث العوالم الأخرى: العالم العربي

1. éclairante
2. immobilisme
3. décolonisation épistémologique

[الإسلاميّ]، والعالم الإفريقيّ ماقبل الاستعماريّ، والعالم الصّينيّ، والعالم الياباني، والعالم الهنديّ، والعالم الإنكاوي [الإنكا، هنود أمريكا]، إلخ. وهذا هو الأمر الذي يهمّني، أنّه تنظيم كلّ تلك الموارد الخاصة بـ «العالم-أجمع»[1] من أجل التّفكير كيف يمكن أن تتحقّق عمليّةُ تحرُّرٍ جذريّةٍ من الاستعمار [العلمعرفيّ] لا تمرّ، إطلاقًا، من باب البتر والإقصاء أو من باب تشييد جُدُرٍ مفاهيميّةٍ، بل تمرُّ، واقعًا، من باب الحيازة الإبداعيّة لما أورثتنا إيّاه الإنسانيّةُ قاطبةً، من أجل إنجاز ذلك التّكليف الجوهريّ في هذا الزّمن الكونيّ/العالميّ. أعتقد أنّنا، لكي نواجه التّحدّيات الكبيرة لعالم الغد، في غِنًى عن الرّجوع إلى حِقبة الميْز أو الفصل العنصريّيْن على مستوى المفاهيم. يجب علينا فهمُ أنّه يكمن في ذواتنا جزءٌ من الغرب لن نفلحَ أبدًا في التخلّص منه.

السؤال: هل تعتقد أنّ هذا البناءَ الذي تذكره مُعتَرفٌ به في الساحة الثّقافيّة الفكريّة العالميّة؟

* **أشيل مْبَامْبِي:** كلاّ؛ إذِ القليلُ من النّاس يفكّرون مثلي. خُذْ، كمثالٍ، الحداثةَ الأمريكيّة الشّماليّة. هي أمرٌ غيرُ معقولٍ ولا واردِ الحدوث لو لمْ يتمَّ جلبُ العبيد [من إفريقيا]. هي أمرٌ غيرُ واردِ الحدوث، البتّة، من دون ذلك. بينما نرى أنّ المنطقَ المسيطِرَ يقوم على إنكار تلك المساهمة الآتية من تحت، وعلى إقناع الجميع، تقريبًا، بحقيقة عدم وجود تلك المساهمة. في هذه الظّروف، لا يتمثّل المشروعُ النّقديُّ في القول: «أجلْ، هذا ليس ملكَنا، يجب علينا اختراعُ شيءٍ خاصٍّ بنا». بل يتمثّل المشروعُ النقديُّ في المطالبة بكلّ ما هو حقٌّ لنا، ثم الانطلاق للبحث عن كلّ الإضافات الممكنة التي نستطيع من خلالها، فعلاً، أنْ نحدّ من سطوةِ ما يبدو، خلافًا لذلك، ساحقًا ومهيمِنًا. أنا أعتقد، من جهتي، أنّ هذا المسعى يمنحنا المزيد من الإمكانات للحركة ومن المرونة، ما يُمكّننا، فعلاً، من مواجهة التّعقيد الذي يعترضنا.

السؤال: تُوجد مجموعةٌ من الكُتّاب، ومنهم أنت، يرون أنّ المشروعَ الاستعماريَّ كان زمنًا فارقًا حاسمًا في ظهور الحداثة الغربيّة. كيف تُفسِّر أنت أنّ الغزواتِ الاستعماريّةَ المختلفةَ، التي تمّت في أمريكا، وفي إفريقيا، إلخ. قد كانت حاسمةً في نشأة هذه الحداثة، وبشكلٍ خاصٍّ هذه العقلانيّة، أي، في الواقع، كانت حاسمةً في نشأة عقلانيّةٍ غربيّة ما؟

1. Tout-Monde

*** أشيل مْبَامْبِي:** أنا أعتقد أنّه ليس بوسعنا أنْ نُنكر أنّ الغربَ قد اندفع خارجَ حيّزه الخاصّ، ربّما بشكلٍ أفضلَ ممّا كانت قد فعلته الثّقافاتُ والكياناتُ التّاريخيّةُ [الحضاراتُ] الأخرى، واستطاع، في زمنٍ محدَّدٍ، أنْ يستوعب أفضلَ منها فكرةَ (العالَم)؛ وأنّه قد فكّر، أفضلَ من الآخرين، ثم نفّذ ذلك المشروع الذي هو (استراتيجيا العولمة)، وأنّه قد عمل على فكرة (بناء العالَم)، ونجح في بنائه. وقد حقّق ذلك سواءً من خلال الغزوات العسكريّة، أم الاكتشافات العلمية، أم التّنصير، أم من خلال الدّفع بمواطنيه نحو الاغتراب وإسكانهم، من خلال الاستعمار، في أراضٍ ترجع ملكيّتُها إلى شعوبٍ أخرى. لقد توصّل الغربُ إلى فعل ذلك بطريقةٍ أهمَّ ممّا فعلته (الحضاراتُ) الأخرى.

أنا أرى أنّه تُوجد، وعلى العكس من الغرب، كياناتٌ بشريةٌ لم تُطوّر هذا المفهوم (العالَم)، إلى حدوده القصوى من جهة النتائج والتّداعيات، والتي لأجلها عملت فكرةُ (العالم) نفسُها دائمًا خلف الأبواب المغلقة تقريبًا. إذا ما كان الغربُ قد استطاع أنْ يمارسَ مثل هذه السّيطرة/الهيمنة على جزءٍ كبيرٍ جدًّا من كوكب الأرض، فهذا يعني أنّه قد نجح، في حينٍ معيَّنٍ من الزّمن، في نحت مفهومٍ لـ(العالَم)، صلُح، في ما بعدُ، لأنْ يكون قاعدةً أساسيّةً لمشروعه التّوسُّعيّ.

لكنْ، لقد احتاجت (صناعةُ العالم)، وممارسة تلك السّيطرة/ الهيمنة، إلى تسجيل كلِّ ما لم يكن غربيًّا في شكل مواردَ طبيعيّةٍ أو بشريّةٍ، وأفكارٍ، وموادَّ بمختلف الأصناف. لقد تحقّق ذلك التّسجيلُ، في أغلبه، بفعل ظهور المنظومة الرأسماليّة. وقد كانت النّتيجةُ من كلِّ ذلك أن تمكّنت المقاطعةُ [الغربُ... الجزء من العالَم] من ممارسة تأثيرٍ قويٍّ على عالمنا أجمعَ. لكنْ، بحصول ذلك، انطلقت مرحلةٌ من تاريخ البشريّة حيثُ يصعب تحديدُ حصة ما هو داخلَ الغرب وتمييزُها عن حصّة ما هو خارجَه. في الواقع، ينفتح منذ هذا الحين تاريخٌ [جديدٌ] للعالم، هو تاريخ التّداخُل التّراكُب، تاريخُ احتواء العوالم الأخرى. وبالنّسبة لنا، في ما يخصّنا، هذا الأمر يُعسِّر جدًّا تحديدَ ما هو خاصٌّ بنا ممّا هو ليس كذلك. وعندئذٍ، سنجد هذا داخلاً في ذاك، وذاك داخلاً في هذا. ومن دون أنْ نُوليَ اهتمامًا دقيقًا لسيرورة التّداخُل والتّراكُب هذه، أنا أعتقد أنّنا نخسر قسطًا عظيمًا ممّا مضى.

السؤال: في كتاباتك، أنت تُشير إلى أنّ (العِرق) هو، تاريخيًّا، النّتيجةُ لإعادة تأكيد الفكرة العامّة المتشدّدة الجازمة بوجود الاختلافات الاجتماعيّة بشكلٍ غير قابلٍ

للجَسر/التّوفيق. وأنت تُضيف أنّ (العِرق) قد كان، في السّياق الاستعماريّ، أحدَ المبادئ التي هيكلت العلاقاتِ الاجتماعيّةَ وممارسةَ السّلطة. بينما نجدك، من جهةٍ أخرى، تقوم، أيْضًا، بتوظيف (العِرق) لكي تنقد، بشكلٍ خاصٍّ، النّموذجَ الجمهوريَّ الفرنسيَّ الذي يُنكر الواقعَ العرقيَّ، في حين أنّ سجلَّه مُثْقَلٌ بالأحكام المسبقة حول ممارساته العنصريّة. كيف يُمكن، والحال هذه، تجنُّبُ حصولِ استعمالٍ عنصريٍّ لمّا تتمّ تعبئة مقولة (العِرق) المفهوميّة هذه؟

* **أشيل مْبَامْبِي:** تنبع قوّةُ هذا المفهوم [العِرق] من قابليّته اللاّمتناهية، تقريبًا، للتّكاثُر (التّفرُّع). لقد كانت هذه هي الحُجّةَ الأساسيّةَ. لقد كانت الحالةُ الفرنسيّةُ، التي ذكرتَها، تُستعمَل كمثالٍ توضيحيٍّ لتلك القابليّة التّكاثريّة التي تجعل، في الأساس، من طبيعة العنصريّة أنّها تسبق، في كلّ مرةٍ تقريبًا، كلَّ تكتيكٍ يُستعمَل لمنهاضتها. الحاصلُ هو أنّ نضالاتِنا ضدّ العنصريّة هي دائمًا متأخِّرةٌ قليلاً مقارنةً بالفعل النعصريِّ نفسِه. لقد كانت غايتي متواضعةً جدًّا، وهذا لا ينفي الـمُفارَقةَ التي أثرتَها في سؤالك.

لكنْ، يُمكننا تفسيرُ تلك الـمُفارَقة تاريخيًّا، أيْضًا. من خاصّيّات المسار الفرنسيّ إعلانُه أنّه تُوجد إنسانيّةٌ أصيلةٌ، وإعلانُه وجودَ شيءٍ وراء الاختلاف، وإعلانُه أنّه يقوم على مبدإٍ كونيٍّ/عالميٍّ يتعالى على كلِّ خصوصيّةٍ، وتثبيتُه لهذا المبدإ كأفقٍ للفعل السّياسيّ. إلاّ أنّ فرنسا، ومع كلِّ هذا التّنظير الإنسانويّ الرّائع، كانت تمارس في مستعمَراتها، سواء الرِّقّيّة منها، أم الإسكانيّة الاستيطانيّة أم الاستغلاليّة، أشكالاً من التّمييز [العنصريّ] كانت موضوعًا لتشريعاتٍ قانونيّةٍ، كانت تُراعَى في عمليّات التهيئة العمرانيّة في المدن، وفي معايير برامج الإدماج الاجتماعيّ، إلخ. إنّها ممارساتٌ تتناقض، في النهاية، مع ذلك النّموذج الإنسانيّ [الـمَعلَن والـمُتبنَّى نظريًّا وقانونيًّا]. وبالنّتيجة، فإنّ المسألةَ بالنّسبة لضحايا تلك الممارسات هي على أيّ قواعدَ يُمكننا الزّعم بانتمائنا للكونيّ/العالميّ؟ وكما يحصل غالبًا، للأسف، فإنّ أغلب تلك النّضالات تتمّ من خلال العبارات نفسها التي تعمل على تهميش الفاعلين في تلك النّضالات.

السؤال: بهذا الخصوص، أنت تعدّ مفهوميْ «الكونيّ/العالميّ»[١] و«المشتَرك»[٢] متضادَّين، باعتبار أنّ الأوّلَ قد طوّر رؤيةً مسبَقةً عن الإنسانيّة، وتتمثّل المهمّةُ في جعل (الآخر) يتبّاها، وينخرط فيها، بكلّ الوسائل بما يشمل الإكراهَ، في حين أنّ الثّانيَ، الذي طوّرتَه أنت، ينادي بتحقيق «بناءٍ مشترَكٍ»[٣] مع كلِّ إنسانٍ في تفرّده[٤] وفي غيريّته[٥]، بما يؤدّي إلى بناء إنسانيّتنا المشترَكة.

* **أشيل مْبَامْبِي:** يجدر التّذكيرُ بأنّ هذا (البناءَ المشترَكَ) لا ينحصر بالكائنات البشريّة، بل يتعدّاها ليشمل كلَّ الكائنات الحيّة، إيْ إنّه (بناءٌ مشترَكٌ) يرفض فكرةَ «التّجسيم»[٦]، ويُلغي فكرة (الإنسان مركزُ العالَم)، ويكسر ذلك الغُلّ الذي يأسرنا حيث الناسُ هم في الذُّروة وباقي الكائنات مسخَّرةٌ لخدمتهم.

السؤال: إنّ ما تثيرُ من مسائلَ هامٌّ؛ لأنّ هذا التوسيعَ يُمكن أنْ يجعل البعضَ يُفكّر، بسذاجةٍ، بأنّ الأزمنةَ، حيثُ كان يتمّ الاستفهمام حول انتماء بعض الرجّال وبعض النّساء إلى الجنس البشريّ، قد ولّتْ. بينما الأمرُ مخالفٌ لذلك في الواقع. ما هي، حسب رأيك، التّحدّيات التي لا زالت موجودةً في النّضالات حول تعريف حقيقة الإنسانيّة؟

* **أشيل مْبَامْبِي:** إنّها، حتمًا، التّحديّاتُ القديمةُ المألوفةُ، كما كان يقول فرانز فانون، مثل الاعتراف المتبادَل على أساس أنّ الآخَر و أنا كلينا ننتمي إلى الجنس البشري مثل جميع الآخَرين. هذا النّوع من التّساوي الأساسيّ الذي لا يُمكن أنْ يكون موضوعًا للإنكار من دون أن يقع التّشكيكُ في كلِّ شيءٍ. إنّه ذلك التّساوي الأوليّ/الأساسيّ - يُسمّيه الإنكليزُ Communality -، إنّه تلك

1. universel
2. en-commun
3. coconstruction
4. singularité
5. altérité
6. anthropomorphisme

الميزةُ التي تُوجَد فينا جميعًا كقاسمٍ مشترَك، إنّه ذلك الشيء الذي لا يقبل التّصرُّف[1]. لا أحدَ يستطيع أنْ يسلبَك هذا الامتياز الذي، علاوةً على ذلك، ليس واحدًا؛ لأنّه ينتمي للجميع، ومنه تنشأ/تتفرّع جميعُ الامتيازات الأخرى. يبقى ذلك تحدِّيًا، خاصّةً في هذا العصر مع الظّهور، من جديدٍ، للأشكال الأوليّة/القديمة للعنصريّة، ومع الاستثمار الـمُفرِط العاطفيّ والسّياسيّ، الـمُوغِل في اللّاعقلانيّة/السّفاهة، في فكرة الحدود، ومع الإسلاموفوبيا، والرّغبة في الفصل العنصريّ[2]، أو حتّى في الفصل العنصريّ الذّاتيّ[3]، التي يبدو أنّها تميّز عصرَنا.

لكنْ، يُوجَد تحدٍّ ثانٍ يرتبط بما يُمكن أن نُسمّيَه (سياسة المستقبل) التي تهدف إلى إنهاء الامتياز الذي حصل عليه البشرُ من خلال تأسيس عالَمنا، في هذا العصر حيثُ أصبح كوكـبُنا أصغرَ ممّا كان عليه في أيّ زمن مضى، وفي هذا العصر حيث نشهد أزمةً بيئيّةً، وفي هذا العصر حيثُ وصلنا إلى حدّ أنْ تُطرَح، بشكلٍ مُلِحٍّ ومستعجلٍ، مسألةُ بقاء كلّ الأجناس/الأنواع [الحيّة] لا الجنس/النّوع البشريّ فحسبُ. بالنّسبة لي، تكمن التّحدّيات[4] في هذيْن المستويَيْن، بما أنّ التّحدّيَ[5] هو في تجاوز التّقديس الأعمى[6] للاختلاف، من أجل التّفكير، بطريقةٍ جماعيّة، في ما هو الشّكل الذي يُمكن أن تأخذه فكرة الـ«معًا»[7] هذه، وكيف يُمكننا أنْ نتجاوزَ ديموقراطيّةً لا تخدم إلّا للبشر.

السؤال: بماذا يُمكنك أن تُعارضَ أولئك الذين واللّواتي، على الرّغم من كلّ شيءٍ، يعدّون أنّه من الممكن أنْ يُرسُوا شكلاً من الغيريّة الجذريّة/ المتطرّفة[8] التي لا تستتبع، بالضّرورة، التّابعيّة[9]؟ ماذا يُمكنك أنْ تقول لأولئك الذين واللّواتي يؤكّـدون، مثلاً، نحن نتمنّى أن نُقيمَ حدودًا [بيننا وبين الآخَرين]، لا لأنّنا نعد أنفسَنا أرقى، أو

1. inaliénable
2. ségrégation
3. autoségrégation
4. enjeux
5. défi
6. fétichisme
7. en-commun
8. radicale
9. subalternité

أنّ الآخَرين ليسوا بشرًا، بل، بكلّ بساطةٍ؛ لأنّنا، بسبب اختلافنا، نتمنّى أن يعيشَ كلٌّ في حيِّزه الخاصّ به؟

* **أشيل مْبَامْبِي:** إنّ الخطاب حول الحدود هو خطابٌ ترجع أصولُه إلى الفكرة التي مفادُها أنّ شيئًا ما يُهدّدنا، يُهدّد نمطَ حياتنا، أنّ شيئًا ما يّهدّدنا في ما يُمثّل ما هو (نحنُ) جوهريًّا. وما هو (نحن) جوهريًّا يختلف، بعمقٍ/جوهريًّا، عمّا (هم) الآخَرون. أنأ أعتقد أنّه يُوجد هذا الخوفُ العظيمُ الذي، ترجع أصولُه، هو نفسُه، إلى الفكرة التي مفادها أنّه يُوجَد شيءٌ ما يفصلنا عن الآخَرين، والذي يجعل منّا كيانًا متمايزًا كليًّا، يستحيل أن يذوبَ في أيِّ كيانٍ آخَرَ. وهذا الشيءُ الفريدُ والوحيدُ، يجب علينا أنْ نحفظَه بأي ثمنٍ، والوسيلةُ الـفُضْلى لحفظه هي تشييدُ حدودٍ بيننا وبين الآخَرين [غيرنا].

إنّها ميتافيزيقيًا للتّهديد وللصّراع، تفترض أشكالاً من الأقلمة (تقسيم الجغرافيا إلى أقاليمَ متمايزةٍ)[1] شديدةَ الوضوح، ظاهرةً، قابلةً للحساب، لكنّها أيضًا، في أيامنا هذه، أشكالٌ من التّحويط (بناء الجُدُر) الذي تزداد، مع الأيّام، صبغتُه التّجرُّديّة والرّقميّة والإلكترونيّة. تحتاج إعادةُ إنتاج هذه الأشكال من التّحويط نوعًا من الإدارة/الحكومة للتّنقُّل [حركة الناس والبضائع بين الحدود]، ونوعًا من إعادة التّوزيع غير العادل للحركة، أيْ إلى اقتصادٍ حدوديٍّ حيثُ يملك البعضُ امتيازَ التّحرُّك أين شاؤوا، مكانًا وزمانًا، في جميع أنحاء كوكبنا، بينما يُوجد آخَرون لا يستطيعون أنْ يفعلوا ذلك إلّا وفق شروطٍ معيَّنةٍ، كما يُوجَد آخرون أيضًا مجبَرون على عدم الحركة من أماكنهم البتّة.

وهكذا، إذًا، فإنّ القضيّةَ الكبرى، في الحقيقة، في بداية هذا القرن، هي قضيّةُ حقّ السُّكنى في هذا الكوكب الذي هو ملكيّةٌ مشترَكةٌ لنا جميعًا، وفي الحقّ الكونيّ/العالميّ للتّنقّل، الذي هو حقٌّ إنسانيٌّ جوهريٌّ. إنّ القضيّة الكبرى تتمثّل في معرفة:

١. مَن الذي يملك الحقَّ في سُكنى كوكبنا بشكلٍ كاملٍ؟

٢. ومَن الذي لا يستطيع سُكناه إلّا جُزئيًّا؟

٣. ومَن الذي الذي لا يستطيع سُكناه إلّا على الهامش، في أنواعٍ من النّفي/الإبعاد، وفي معازلَ مُحاصَرةٍ، لا تكفّ عن التّكاثُر، وحيثُ تتكدّسُ شعوبٌ زائدةٌ عن الحاجة، وهي مُعرَّضةٌ لجميع أشكال المخاطر؟

1. territorialisation

هذه هي التّحدّياتُ، وأنا ضدّ القسمة غير العادلة لعالَمٍ هو، جوهريًّا، مِلكُنا المشترَك جميعًا، ولنا فيه، كلِّنا، حقوقٌ متساويةٌ.

السؤال: أنت تؤكّد في كتاباتك أنّ المسيطِرين/المهيمِنين والخاضعين للسيطرة/الهيمنة يندرجون، في السّياق مابعد الاستعماريّ، في الإبيستيما (الوحدة المعرفيّة / épistémè) نفسها. كما أنّك تدعو إلى سيرورة تحرُّر ذاتيٍّ من الاستعمار[1] سواء عند هؤلاء أو عند الآخَرين. هل يُمكننا القولُ، لأجل هذا، إنّ هذه السّيروةَ هي متشابهة/متطابقةٌ بين الحالتيْن؟ مثلاً، هل تندمج البنى الاجتماعيّةُ، الكامنةُ في فكرة العرق، بالطّريقة نفسها في البنى النّفسيّة والعقليّة الخاصة بالمهيمنين وبالخاضعين للهيمنة؟ ما الاختلافاتُ، وما النّقاطُ المشترَكةُ، التي يُمكن أنْ تكون موجودةً بين الفريقين؟

* **أشيل مْبَامْبِي:** الفريقان ليسا متطابقيْن البتّةَ. الفكرةُ هي أنّ أشكالَ السّيطرة/الهيمنة الأكثر دوامًا، لأجل أنْ تؤدّيَ وظيفتَها، تحتاج في مكانٍ ما إلى أنْ تُنشِئ عُقدًا للتّواطؤ[2]. يُمكّن العنفُ الوحشيُّ من إنشاء ظروفٍ مناسبةٍ لهذا التّواطؤ، لكنّه لا يكفي. لمّا نتكلم عن التّواطؤ بمختلف أشكاله[3]، نحن لا ننكر، بذلك، الطّابَعَ البنيويَّ/الهيكليّ الاستعماريّ. نحن بصدد القول إنّ العنفَ الأساسيّ/الأوّليَّ، والأصيلَ يحتاج إلى مناوبةٍ[4] في وسط الطّبقات التي هي ضحاياه الأساسيّين.

لكنْ، كلُّ شكلٍ من أشكال العنف الدّائم يجب أنْ يَستغلّ، أيْضًا، منابع الخوف ومنابعَ الرّغبات الـمُعترَف بها وغيرَ الـمُعترَف بها التي تُوجَد في وسط المجتمع الخاضع للسّيطرة /الهيمنة. يجب عليه أنْ يعمل ما بوسعه لتوظيف تلك الانفعالات، وتلك المشاعر، وتلك النّبضات العاطفيّة، من أجل أنْ يصل، بذلك، إلى بيان إمكانيّة الإشباع العاجل أو الآجل لتلك الرّغبات. وبهذه الطّريقة بالذّات يستطيع هذا الشّكلُ من السّيطرة/الهيمنة أنْ يأسر الإنسانَ الخاضعَ للسّيطرة/الهيمنة، وأنْ يُثبّتَه في حالة انتظارٍ لإشباع الرّغبات تظلّ في تُمدَّد بلا حدٍّ محدودٍ.

1. autodécolonisation
2. noeuds de connivence
3. connivence, complicité, collusion
4. relais

وهكذا، إذًا، فإنّ الفكرةَ تكمن في القيام بشيءٍ من التّعقيد للجدال حول مقاومة السّيطرة/الهيمنة، من خلال التّعامل بجديّةٍ كبيرةٍ مع مسألة الأسباب التي تجعل النّاسَ لا يثورون، حتّى ولو أنّ كلَّ الأمور تبعث، موضوعيًّا، على الاعتقاد بأنّ الأوضاع غيرُ قابلةٍ للتّحمُّل. أنا مَعنيٌّ بفتح مساراتٍ للتّفكير حول حدود القابليّة للتّحمُّل التّي تفسّر تصرّفَ بعضِ النّاس الذين يختارون، في ظروفٍ معيَّنة، أنْ يناضلوا ضدَّ ما يبدو لنا أنّه هو مصلحتُهم الخاصّة. لأنّه لو كان الأمرُ يسيرًا لكنّا نعيشُ في عالَمٍ في حالة ثوراتٍ مستمرّة. إذًا، لِمَ لا نشهد حصولَ إلّا هذا العدد القليل من الثّوراتِ، مع أنّ كلَّ شيءٍ يدفع إلى الجزم بأنّنا قد بلغنا الحدودَ غيرَ القابلةِ للتّحمُّل؟

السؤال: هناك انطباعٌ بأنّك تريد اللإفلاتَ من طوق مقاربةٍ موغلةٍ في المادّيّة للعلاقات الاجتماعيّة، من أجل أن تسلّطَ الضّوءَ، أيضًا، على أهميّة البنى النّفسيّة والعقليّة التي لها تأثيرٌ ملموسٌ بمستوًى يجعلها قادرةً على حمل مجتمعٍ بما لا يستطيعه اقتصادٌ أو جيشٌ. أليس كذلك؟

* **أشيل مْبَامْبِي:** كلامُك صحيحٌ تمامًا. يجب أن نخرج من سجن الثّنويّات[1]، كما يجب الكفُّ عن اختزال الفعل الإنسانيّ في الحوافز الاقتصاديّة والنّفعيّة وحدَها. يجب علينا أنْ نتعامل بجدّيّة مع مجموعِ عوالمِ الحياة، ومع مجموع أنسجة الحياة. هذه تُعدّ خيوطًا قائمةً ومتنوّعةً. والخيوطُ الغريزيّةُ تمثّل جزءًا منها قطعًا.

السؤال: هل يُمكننا الكلامُ، في هذا الصّدد، عن اقتصادٍ رمزيٍّ للعلاقات الاستعماريّة ومابعد الاستعماريّة؟

* **أشيل مْبَامْبِي:** عملي يسير نحو هذا الاتجاه تقريبًا. لا يكفي أنْ نقول إنّ المادّيَّ ليس هامًّا، بل يجب أنْ نضمَّه إلى حوافزَ أخرى ملموسةٍ جدًّا في ما يتعلّق بالمواضيع التي تتضمّنها السيروراتُ التّاريخيّةُ.

1. dualismes